طلائع الديكتاتورية

من علامات العصر الحاضر السياسية التى تستدعى التفكير ظهور الزعامات المطلقة فى مدى واسع وصور خلابة واستعلاؤها واستفحال شأنها ، وضمور المبادىء والنظريات وتراجعها لانشغال القوم بعبادة الزعيم ، والتفانى فى طاعته ، والاذعان التام لكلمته ، وكثير من أمم الحضارة تستمد وحيها فى العهد الأخير من الأفراد ، وتنهل من معين شخصيتهم ، وتأتمر بأوامرهم ، وتترسم خطواتهم ، وأكثرهم ينعمون بسلطة لم يحظ بمثلها أكاسرة الفرس ، وأباطرة الرومان فى الأزمنة القديمة ، ولم ينلها قياصرة الروس وسلاطين العثمانيين فى العهود المتأخرة ، وقد برز أكثر هؤلاء الزعماء من الخفاء فى صور غامضة وظروف ملتبسة يكاد يبدو فيها أثر الأسطورة وظل الخرافة ، ولقد كان للزعامات أثر كبير فى تكوين التاريخ وتشكيل الحوادث وتوجيه الأمم ، ولقد أَلّه اليونان الحكام والطغاة وخلعوا عليهم القداسة ، ووطدوا بذلك عروشهم وأبعدوا نفوذهم ، وورثت الدولة الرومانية ذلك التقليد عن اليونان ضمن ما اقتبسته من أساليبهم فى السياسة وطرائقهم فى التفكير ، وإنها لنكسة

غريبة أن ترتد الإنسانية فى القرن العشرين إلى هذا الأسلوب من الحكم المزرى بالكرامة الإنسانية من أكثر نواحيه ، والذى يقدم الدليل الناصع لمنكرى حركة التقدم وجمهرة الساخرين من النوع الإنسانى المستهزئين بمبادئه وأحلامه وتعلاته وأوهامه

فما هى الأسباب والعلل التى تأدت بالأمم المتحضرة إلى مثل هذه الحالة المحزنة والخاتمة الأليمة ؟ وكيف ارتضت أمم هى فى ذروة الذكاء وقمة الرقى أن تضع جهودها وموارد ها ومصائرها بين يدى فرد من الأفراد لا تؤمن نزواته ، ولا تتقى جمحاته ، مهما سمت مكانته ومهما كان حظه من البصيرة والرأى ؟ وكيف تضاءلت شخصيتها ، وفنيت ذاتيتها ، واستغرقها الزعيم فى الوقت الذى كشف فيه علم النفس الحديث عن أمراض العبقرية ، وعلل النفوس الخفية ، وأظهر ضرورة وجود رقابة لكبح شذوذ الأفراد ، ومعالجة أهوائهم ؟

أرى أن هناك أسباباً عامة مهدت السبيل لذلك وأسباباً خاصة متصلة بماضى حياة بعض الأمم وسالف تقاليدها ، ومرتبطة بمزاجها الخاص الذى تكون فى سير الدهر وعلى تعاقب الحوادث وتحت تأثير البيئة والموقع الجغرافى

ويرى بعض المفكرين الاجتماعيين أن فى طليعة الأسباب العامة تزايد عدد السكان ، وبخاصة فى المدن الكبيرة والحواضر المأهولة ، وتجمعهم فيها بعيدين عن الخلوات حيث لا يجدون مخرجاً لعواطفهم الجائشة وأشواقهم الفائرة ، وما يعتلج فى نفوسهم من النوازع ، فهم من ثم فى حاجة إلى خلق شىء يوجهون إليه فائض شعورهم ، ومكظوم ميولهم ، ومحتبس نشاطهم ، ويطلق القوى المتدفقة فى نفوسهم . ووجود الزعيم يتيح لهم هذه الفرصة الغالية ، وينفس عن نفوسهم المكروبة ، ويهيىء لقواهم المكنونة مخرجاً ، وإذا تكاثرت جموعه ، واشتدت حماسة أتباعه أصبح زعيما لشعب بأسره لا لحزب معين أو هيئة خاصة

وسبب آخر هام ، هو طغيان السلطة التشريعية على السلطة التنفيذية فى العصور الحديثة ، ومحاولة تقليل العوامل الشخصية فى السياسة وإضعاف عنصرها ، فقد أثار الإفراط فى ذلك رد فعل قوى استدعى العودة إلى قوة الزعامة وسحر الشخصية ، ومضاء الفرد المجتمع العزيمة ، فقادة العصر الحاضر وزعماؤه هم مظهر من مظاهر العودة إلى تقليد قديم من تقاليد السياسة التنفيذية ، يقتضى أن ينفرد الفرد بالسلطة ويضطلع بالمسئولية ويواجه جلائل

الأمور بعد عصر الإفراط فى اتباع أصول الحياة النيابية والإيغال فى دروبها

ولكن المسألة أبعد إغراقاً من ذلك وأكبر شأناً من إرضاء غرائز الجماعات وأخطر أمراً من أن تكون مجرد ثأر السلطة التنفيذية من السلطة التشريعية والأساليب النيابية ، وظهور الزعامات يقوم فى الأكثر على أسباب كثيرة متشابكة وعوامل متداخلة . ولأجل أن أجمع أطراف الموضوع ، وأستقرئ بعض تلك العلل والدوافع ، سأنتقل من التعميم إلى التخصيص ، وأتحدث عن هتلر زعيم ألمانيا النازية وموسوليني زعيم إيطاليا الفاشية وأبين أثر التيارات الفكرية والأحوال النفسية والظروف الخاصة التى أفسحت لهما الطريق وهيأت الفرصة

ولكى نقدر الظروف التى يسرت سبيل الظهور لهذين الزعيمين لا محيص لنا من مراقبة تيارين من تيارات الفكر فى أوربا ، أحدهما تيار الفكر التيتونى الذى يرتفع إلى هجل ونفخت ويتمثل فى نيتشه ، والآخر تيار الفكر اللاتينى الذى يبدأ فى فلسفة برجسون ، ويبدو قوياً فى كتابات سوريل وباريتو أكبر أساتذة موسوليني ، وقد أثر التيار الأول فى التفكير الألمانى أقوى تأثير ،

ولم يقتصر تأثيره على ألمانيا ، فقد عبر جبال الألب وامتزج بالتفكير الإيطالى ، وعلاقة التفكير الإيطالي الحديث بالتفكير الألمانى معروفة عند قراء تاريخ الفلسفة الحديثة

ونيتشه الذى أحدث أكبر تأثير فى الفكر الألمانى الحديث لم يكن مفكراً منطقياً ولا من بناة المذاهب الفلسفية الكاملة النظام البديعة التنسيق ، وإنما كان مفكراً كثير الانتفاضات ، جم الوثبات ، يرسل الكلمات المجنحة والحكم الجامعة فى أسلوب قوى حار تشرق فى جوانبه لمعات العبقرية واضواء الإلهام ، وقد حمل على آداب العبيد وأشاد بآداب السادة ، واعتبر الدمقراطية والاشتراكية والآداب المسيحية مظاهر مختلفة من آداب العبيد وأخلاق الضعفاء ، وقد عملوا على إيجادها لتعرقل عمل الطبيعة التى تقضى بأن يحكم القوى الضعيف ، وفى طليعة آداب السادة النبلاء يضع نيتشه الرغبة فى القوة ، وهى تستلزم أن يثير الإنسان كوامن نفسه ، ويستغل موارده ، ويحرك فيها كل نابضة ويشعل كل خامدة ، ويفرض إرادته على الكون ويسيطر على الطبيعة ، ومن السهل أن يستفيد الطغاة من مثل هذه الفلسفة ، ويستخرجوا منها ما يؤيد خطتهم ، ويثبت صحة مذهبهم ، ولكن

هذا التفسير لنيتشه لا يخلو من خطأ وتحريف ، لأن الإنسان الأعلى عند نيتشه منوط بالمستقبل البعيد ، وتصل إليه الإنسانية على مدارج العصور القادمة بعد مراحل شاقة من التطور وجهود ضخمة يبذلها سادة البشر فى شق الطريق وإزالة العقبات ، ولم تكن الرغبة فى القوة عند نيتشه مجرد رغبة فى السيطرة على الناس ، وإنما هى رغبة فى السيطرة على النفس وشد حيازيمها لفرض إرادتها على الكون . ولم يكن نيتشه من أنصار فكرة الحكومة الشاملة الكلية التى تستغرق الأفراد وتحتوى الأمة ، وتنتظمها عبقرية فرد ، بل كان يحمل على فكرة الحكومة ولا يرحب بفكرة القومية ، ولكن تأثير فلسفة نيتشه كان أمراً آخر غير ما أراده نيتشه ، فهو لم يكن من محبذى الديكتاتورية ، ولكن فلسفته تضمنت حملة شعواء على الدمقراطية ، والدمقراطية فى رأيه تخمد طموح الشعوب ، وتستلب حيويتها ، وتصدها عن حياة المغامرة ومعاناة الأهوال ، وتتركها تغط فى نعيم الحرية والمساواة والإخاء ، وهو كان يريد الحركة وإيقاظ العزائم . ومن الهين أن يتصور كل ديكتاتور أنه إنسان نيتشه الأعلى ، برغم أن نيتشه كان يود أن يحتفظ بهذا اللقب

ليجود به على إنسانه الأعلى الذى سيتمخض عنه المستقبل البعيد

وكل زعيم سياسى مهما كان غريبا فى آرائه ، شاذاً فى تفكيره ، فإنه لا يمكن أن يكون منقطع الصلة بتقاليد قومه واتجاه تفكيرهم ، ومن ثم فان العقيدة النازية لا تبدأ بهتلر وإنما ترتقى فى سلسلة النسب إلى نيتشه ، وترتفع منه إلى نظرية الدولة التى قال بها هجل — والدولة فى رأى هجل « ظل الله فى الأرض » — وإلى نظرية صراحة الشعب الألمانى التى نادى بها فخت ، وثورة هتلر على السامية مستمدة من آراء هوستن ستيوارت شمبرلين المعروف بمقالاته فى الحملة على اليهود ، والذى خصص صفحات من كتابه المشهور « أساس القرن التاسع عشر » ليثبت أن المسيح ألمانى الأصل ويبرئه من اليهودية ، ولقد كانت عبادة القوة على الدوام من خصائص السياسة الألمانية وسمات التفكير الألمانى . ولقد أسس بسمارك الوحدة الألمانية بالدم والحديد ، ولقد سلبت الحرب الكبرى ألمانيا النصر الذى كانت تحلم به وجللتها عارا ، ووسمتها بميسم الهزيمة ، وتبعتها أزمات اقتصادية عسرت القوم وأملقتهم وأكثرت بينهم المتعطلين ، فجاءهم موسى الكليم فى صورة هتلر ليخرجهم من التيه ويقودهم إلى أرض الميعاد ، وقد استطاع

هذا « المخلص » الجديد فى سنوات معدودة أن يستنقذهم من الحضيض و يرحض عنهم الإهانة و يرفعهم إلى ربوة الأمل .

أما التيار الفكرى اللاتينى الذى يبدأ من برجسون ، و يستمد قوته من فلسفته فقد أخذ صوراً متعددة ، ولبس أزياء مختلفة ، و برجسون يذهب إلى أن الآداب فى صميمها مسألة حيوية ، وأنها ثمرة قوة الحياة التى تحرك الخليقة بأسرها ، وقوة الحياة هذه تعمل فى الانسان وعالمه الأدبى بطريقين ، فهى من ناحية تسلح الإنسان بالغريزة ، وتخلق على أساسها الآداب الاجتماعية البدائية التى تقوم عليها المصالح المشتركة والمطالب الاجتماعية ، وهى من ناحية أخرى تزود الإنسان بالفهم وتحبوه العقل ، وتخلق ضربا آخر من ضروب الآداب مداره وحى الفرد و إلهام عاطفته ، وأدب الفرد ثمرة وثبة مفاجئة لأن الحياة تمنح هؤلاء الأفراد القدرة على التجديد ، واستحثاث خطوات الانسانية والتقدم بها ونقلها إلى آفاق أرحب ، والفرد الذى تختصه الطبيعة بالقدرة على إيجاد آداب جديدة فيه شمائل إنسان نيتشه الأعلى ولوائحه ، وإن كان برجسون لا يناوئ الدمقراطية ولا ينصب لحربها ، و بطل الآداب عنده هو خادم الانسانية الأمين لا جبارها المصعر

خده ، ولا سواقها الحطم ، ولكن إذا كانت مبادىء الدمقراطية تتساوق مع تلك الأفكار فإن طبيعة حركتها ، وطريقة سيرها تنافرها وتناقضها ، وذلك لأن الدمقراطية تعتمد على التقدم التدريجى ، والمجهود المتصل ، وفلسفة برجسون قائمة على الوثبة المباغتة والتطور المفاجئ ، والدمقراطية تعوّل على مناقشة الآراء ، والتعاون فى تحرى الأمور ، وتقليبها على وجوهها ، وفلسفة برجسون تثبت أن الكثرة الغالبة من الناس تدين بالآداب التى يرجع الفضل فى تقديرها إلى الأفراد ، فدوافع الحياة ليست دمقراطية ، وهى تعمل بالوثبات غير المنظورة ، والقوة المسعفة فى هذه الوثبات هى الفرد الممتاز الذى تتمثل فيه شهوة التقدم ، ونزعة التجديد ، والتطلع إلى صور الحياة الطريفة ، ومعانيها المبتكرة ، فمذهب برجسون لهذه الاعتبارات ملون باللون الارستقراطى ، وقد تأثر برجسون سوريل ، ولكنه آثر أن يجد القائد الذى ينقل المجتمع ويخطو به إلى الأمام بين طبقة العمال ، والطبقة المتوسطة والطبقة العليا فى نظره تعيشان على تراث الماضى ، وطبقة العمال هى الطبقة التى فى وسعها خلق الصفوة الممتازة ، وهذه الصفوة هى التى تحرك المجتمع وتعمل على ترقيته ،

ولا تحجم عن مصادمة القوة بالقوة ، ودفع العدوان بالعدوان ، وفلسفته هى فلسفة برجسون ممزوجة بعناصر مستخلصة من تعاليم كارل ماركس ، ولكنها برغم ذلك المزج بقيت محتفظة بفكرة « الزعامة » وفكرة « الوثبة المفاجئة » .

ونظرية باريتو صديق سوريل ، وأستاذ موسوليني ، هى تمديد وبسط لنفس هذه الطريقة من طرائق التفكير ، فهى نظرية تقوم على أن التاريخ من صنع الصفوة الممتازة من البشر ، فهم يؤلفون زعامة اجتماعية مستمدة من مزاياهم الشخصية ، ومكانتهم المرموقة ، وهم يحاولون أن يحتفظوا بنفوذهم حتى بعد أن ينتهى دورهم وتنضب قوتهم ، ولكن ظهور صفوة مختارة جديدة نابعة من أعماق المجتمع ، حاملة رسالة جديدة ، وهمة طريفة ، فى كنف أسطورة جديدة ناشئة يزحزحهم عن مكانتهم ، ويمحو نفوذهم ، وهذا النزاع الدائم بين الصفوات المختارة من النظريات التى يتكون منها المذهب الفاشى .

ففى آراء برجسون وسوريل وباريتو ما يؤيد نظرية الزعامة الديكتاتورية ، ويبين فائدة الوثبة التى تحدث من أثر القوة المتجمعة فى نفس الزعيم ، ودوافع الحياة المتجسمة فيه ، وبها تستطيع الطبيعة أن تنقل الانسانية من مستوى إلى مستوى أرفع

مستعينة فى ذلك بعامل آخر يسميه سوريل وباريتو « عامل الأسطورة ». والمقصود به الأوهام التى تشد أزر الانسان، وتقوى نفسه، وتهون عليه لقاء الشدائد، واحتمال الآلام فى سبيل تحقيق أحلامه، فالانسان فى رعاية الزعيم، وفى ظلال قيادته، وتحت تأثير سحره وجاذبيته، وفى حمى الأسطورة ينبذ الماضى، ويجفو آثاره، ويتقدم إلى المستقبل فى ثقة واطمئنان.

وقد بدأ هذا التيار من الفكر اللاتينى فى فرنسا، وتدفق منها إلى إيطاليا، وهناك بلغ القمة، وانتهى إلى الغاية، وإيطاليا فى تاريخها كانت على الدوام مسرحا لظهور الشخصيات الجريئة المتقحمة غير المترددة، والزعامات الجريئة الممتازة فى الدين والسياسة، وليس بالمستنكر على أمة عانت الأمرين من انصداع الوحدة، وتفرق الشمل، وفقدان الشعور القومى فترات طويلة من حياتها أن ترى فى الزعيم المفرد رمز الوحدة، وعنوان الاتحاد، وباعث القومية، وغير غريب أن تلتف أمة أكثرها من المزارعين الذين عسرهم الفقر، وطغى على مداركهم الجهل حول زعيم بارز، ذرب اللسان، قوى الشخصية، حاضر البديهة، ماضى العزيمة، وتنقاد لآرائه، وتسير إذا ما سار خلفه وتأتم به.